

نص الراعي والرعية

وقال الوزير [ابن سعدان] في بعض الليالي: "قد والله ضاق صدري بالغيظ لما يبلغنا عن العامة من خوضها في حديثنا..."

قلت: أيها الوزير حكى لنا أبو سليمان* أنه رفع إلى الخليفة المعتضد** أن طائفة من الناس يجتمعون بباب الطاق*** ويجلسون في دكان شيخ تبان⁽¹⁾، ويخوضون في الفضول⁽²⁾ والأراجيف⁽³⁾ وفنون من الأحاديث، وفيهم قوم سراة⁽⁴⁾ وتناء⁽⁵⁾ وأهل بيوتات سوى من يسترق السمع منهم من خاصة الناس، وقد تفاقم فسادهم وإفسادهم، فلما عرف الخليفة ذلك ضاق ذرعاً، وخرج صدرًا، وامتلاً غيظاً، ودعا بعبيد الله بن سليمان***، ورمى بالرفيعة⁽⁶⁾ إليه، وقال: أنظر فيها وتفهمها. ففعل، وشاهد من تربد وجه المعتضد ما أزعج ساكن صدره، وشرّد ألف صبره، وقال: قد فهمت يا أمير المؤمنين. قال: فما الدواء؟ قال: تتقدم بأخذهم وصلب بعضهم وإحراق بعضهم وتعريق بعضهم، فإن العقوبة إذا اختلفت، كان الهول أشد، والهيبه أفسى، والزجر أنجع، والعامة أخوف. فقال المعتضد - وكان أعقل من الوزير - : والله لقد بردت لهيب غضبي بفورتك⁽⁷⁾ هذه، ونقلتني إلى اللين بعد الغلظة، وخططت عني الرفق، من حيث أشرت بالخرق⁽⁸⁾، وما علمت أنك تستجيز هذا في دينك وهديك ومروءتك، ولو أمرتك ببعض ما رأيت بعقلك وحزمك لكان من حسن المؤازرة ومبدول النصيحة والنظر للرعية الضعيفة الجاهلة أن تسألني الكف عن الجهل، وتبعثني على الحلم، وتحبب إلي الصفح وترغبني في فضل الإغضاء على هذه الأشياء. وقد ساءني جهلك بحدود العقاب وبما تقابل به هذه الجرائر⁽⁹⁾، وبما يكون كفاً للذنوب، ولقد عصيت الله بهذا الرأي ودللت على قسوة القلب وقلة الرحمة ويأس الطيبة ورقة الديانة، أما تعلم أن الرعية وديعة الله عند سلطانها؟ وأن الله يسأله عنها كيف سئتها؟ ولعله لا يسألها عنه، وإن سأله فليؤكد الحجة عليه منها؛ ألا تدري أن أحداً من الرعية لا يقول ما يقول إلا لظلم لحقه أو لحق جاره، وداهية نائمه أو نالت صاحباً له؟ (...). أنظن أن العمل بالجهل يتفع، والعذر به يسع، لا والله ما الرأي ما رأيت، ولا الصواب ما ذكرت.

وجه صاحبك وليكن ذا خبرة ورفق، ومعرفةً بخير وصدق، حتى يعرف حال هذه الطائفة، ويقف على شأن كل واحد منها في معاشه، وقدر ما هو متقلب فيه ومتقلب إليه، فمن كان منهم يصلح للعمل فعلقه به، ومن كان سيء الحال فصله من بيت المال بما يعيد نضرة حاله⁽¹⁰⁾، ويفيده طمأنينة باله؛ ومن لم يكن من هذا الرهط⁽¹¹⁾، وهو غني مكفي، وإنما يخرج إلى دكان هذا التبان البطر⁽¹²⁾ والزهو، فادع به، وأصحه، ولاطفه، وقل له: إن لفظك مسموغ، وكلامك مرفوع؛ ومتى وقف أمير المؤمنين على كنه ذلك منك لم تجدك إلا في عرصة المقابر⁽¹³⁾.



فَأَسْتَأْنِفُ لِنَفْسِكَ سِيرَةً تَسْلَمُ بِهَا مِنْ سُلْطَانِكَ، وَتُحَمَدُ عَلَيْهَا عِنْدَ إِخْوَانِكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْعَلَ نَفْسَكَ عِظَةً لغيرِكَ
 بَعْدَمَا كَانَ غيرِكَ عِظَةً لَكَ؛ وَلَوْلَا أَنْ الْأَخْذَ بِالْجَرِيرَةِ الْأُولَى مُخَالَفٌ لِلسِيرَةِ الْمُثَلَى، لَكَانَ هَذَا الَّذِي تَسْمَعُهُ مَا تَرَاهُ،
 وَمَا تَرَاهُ تَوَدُّ أَنَّكَ لَوْ سَمَعْتَهُ قَبْلَ أَنْ تَرَاهُ. فَإِنَّكَ يَا عُبَيْدَ اللَّهِ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ بَالَعْتَ فِي الْعُقُوبَةِ، وَمَلَكَتَ طَرْفِي
 الْمَصْلَحَةَ، وَقُمْتَ عَلَى سَوَاءِ السِّيَاسَةِ، وَنَحَوْتَ مِنَ الْحَوْبِ⁽¹³⁾ وَالْمَأْتَمِّ فِي الْعَاقِبَةِ.
 فَقَالَ الْوَزِيرُ: مَا سَمَعْتُ مِثْلَ هَذَا قَطُّ، وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّ الْخَطْبَ⁽¹⁴⁾ فِي مِثْلِ هَذَا يَبْلُغُ هَذَا الْقَدْرَ.

أبو حَيَّان التُّوْحِيدِي الإِمْتَاعِ وَالْمُوَاسِئَةِ
 ت. أحمد أمين المكتبة العصرية بيروت
 ج III ص 85-91

التعريف بالأعلام والأماكن:

- * أبو سليمان: المنطقي وهو شيخ أبي حيان في المنطق.
- ** الخليفة المعتضد: الخليفة العباسي الذي حكم بين 243 و 289 هـ.
- *** باب الطاق: محلة كبيرة بالجانب الشرقي ببغداد.
- **** عيد الله بن سليمان: وزير الخليفة المعتضد.

الشرح اللفظي:

- | | |
|--|--|
| 1- تَبَان: بانع التبن. | 8- اخرق: ضعف الرأي، وقيل الحمق. |
| 2- الفضول: القول لا فائدة فيه. | 9- الجرائر: المعاصي والكبائر. |
| 3- الأراجيف: الأخبار الكاذبة. | 10- نصرة حاله: طيب العيش. |
| 4- سراة: سادة. | 11- الرهط: الجماعة. |
| 5- تناء: عليا القوم. | 12- البطر: الكبر. |
| 6- الرفيعة: ما يرفعه المخبرون مكتوبا من أحوال
الرعية. | 13- عرضة المقابر: العرضة الساحة الواسعة. |
| 7- فورتك: حدة الغضب. | 14- الحوب: الإثم. |
| | 15- الخطب: المصيبة. |

المطلوب: حلل النصّ تحليلاً مسترسلاً مستعينا بالأسئلة التالية:

- يستحيب النصّ لبنية المسامرة، قطعاً باعتماد هذا المعيار.
- في النصّ حجاج لوزيرين، استخراج الأساليب المعتمدة والخطط الموظفة في دفعهما إلى تفسير موقعهما من الرعية.
- يرسم التوحيدى- على لسان الخليفة المعتضد- ملامح السياسة المثلى، تبين ذلك.
- إلى أيّ حدّ ينزع أبو حيان في نصّه نزعة عقلية؟

